

(١١)

القول الفاصل في استواء الله على عرشه

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا وآله وصحبه أجمعين، قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ونفعنا بعلمه: ((وَالْقَوْلُ الْفَاصِلُ: هُوَ مَا عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْوَسْطُ، مِنْ أَنَّ اللَّهَ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ اسْتِوَاءً يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَيَخْتَصُّ بِهِ كَمَا أَنَّهُ مُؤْصُوفٌ بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُثْبِتَ لِلْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ خَصَائِصُ الْأَعْرَاضِ الَّتِي كَعِلْمِ الْمَخْلُوقِينَ وَقُدْرَتِهِمْ، فَكَذَلِكَ هُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَلَا يُثْبِتُ لِفَوْقِيَّتِهِ خَصَائِصُ فَوْقِيَّةِ الْمَخْلُوقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ وَمَلْزُومَاتِهَا.))

هذا تنظير جيد يقول الشيخ رحمه الله ((وَالْقَوْلُ الْفَاصِلُ: هُوَ مَا عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْوَسْطُ) {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} (البقرة ١٤٣) فكما أن أمة محمد ﷺ وسط بين الأمم بين تشدد اليهود وتفريط النصارى، فأهل السنة والجماعة وسط بين فرق الأمة.

ما هي عقيدتهم؟ أن الله مستوى على العرش استواء يليق بجلاله ويختص به، فهو أضيف إليه. وأنه ليس من لازم ذلك لوازم فاسدة، نظر ذلك فقال فكما يثبت النافي للاستواء المعنى الحقيقي الاستواء أليس يثبت العلم والقدرة؟ لا بد له من ذلك ولو قيل هل الله قدير لقال نعم ومع ذلك لا يلزم من إثبات العلم لله تعالى اللوازم التي تلزم لعلم المخلوق فمثلاً علم المخلوق يستلزم تعلم وحفظ وتذكر أليس كذلك؟ {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (النحل ٧٨) ثم يلزم منه حفظ ثم يلزم منه استذكار، هذه اللوازم هل تلزم لإثبات علم الله؟ لا تلزم لأن علم الله ليس كعلم أي أحد، فإذا قيل لمثبت العلم يلزم من إثباتك للعلم كذا وكذا قال لا هذا ليس بلازم وهذا علم المخلوق، نقول له حينئذ وهذا استواء الخالق واستواء المخلوق. القدرة عند المخلوق تتطلب أدوات وآلات ومثلاً أن يتغذى الإنسان ويتقوى ليقدر أن يفعل فعلاً من الأفعال، لكن قدرة الله لا تستدعي ذلك فالله قدير في ذاته سبحانه، فلو قيل لمن ينفي الاستواء ويثبت القدرة "يا رجل هل يلزم لإثبات القدرة أن يكون كذا وكذا من لوازم القدرة عند المخلوق؟" لرفض وأبى وحقق له ذلك وقال "هذه قدرة المخلوق" لقلنا له: وما تذكر أنت أيضاً من لوازم الاستواء هذا استواء المخلوق فكما أن الله قدرة تليق به لا يلزم عليها لوازم فاسدة كاللوازم البشرية فكذلك استواء الله تعالى استواء يليق به ولا يلزم عليه لوازم فاسدة كلوازم استواء المخلوق على المخلوق".

ثم قال ((وَأَعْلَمُ أَنْ لَيْسَ فِي الْعَقْلِ الصَّرِيحِ، وَلَا فِي التَّنْقِلِ الصَّحِيحِ مَا يُوجِبُ مُخَالَفَةَ الطَّرِيقَةِ السَّلْفِيَّةِ أَصْلًا لَكِنَّ هَذَا الْمَوْضِعَ لَا يَتَسَعُّ لِجَوَابِ عَنِ الشُّبُهَاتِ الْوَارِدَةِ عَلَى الْحَقِّ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ شُبُهَةٌ وَأَحَبَّ حَلَّهَا فَذَلِكَ سَهْلٌ يَسِيرٌ.))

هذه جملة محكمة رصينة (ليس في العقل الصريح، ولا في التنقل الصحيح ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية)، قصده بـ(الطريقة السلفية) ما تقدم، (والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط من أن الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله) وهذا ينسحب على جميع الصفات، (فليس في العقل الصريح) وما هو العقل الصريح؟ هو العقل السالم من الشبهات والشبهات التي تحرفه عن أدائه السوي، إذا قيل عقل صريح فالمقصود العقل السالم من الشبهات والشبهات؛ لأن العقل أداة كما البصر أداة وكما اليد أداة وكما الأذن أداة، وهذه الأدوات تتأثر؛ فالعين تتأثر بالرمد والأذن تتأثر بالصمم واليد تتأثر بالشلل وهكذا، فكذلك العقل يتأثر بأنواع التأثيرات فقد يختل أدائه، فإذا كان العقل سليماً من الشبهات والشبهات فلا يمكن أن تقوم

حجة عقلية تناقض الطريقة السلفية. وكذلك (النقل الصحيح) لا يمكن أن يكون شيء ماثور عن رسول الله ﷺ أو من كلام الله يخالف ما عليه السلف ببساطة لأن السلف هم المعتصمون بالكتاب والسنة وإنما صدروا عن الكتاب والسنة وغيرهم صدر عن أقوال المناطق والفلاسفة وهم المتكلمون، لكن يقول الشيخ رحمه الله (إن بسط ذلك) يعني بالتفصيل (لا يتسع له هذا الجواب) ومن في قلبه شبهة وأحب الدخول في التفاصيل فهذا سهل يسير يمكن أن يطلبه.

((ثُمَّ الْمُخَالَفُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَسَلَفِ الْأُمَّةِ - مِنَ الْمُتَأَوِّلِينَ لِهَذَا الْبَابِ - فِي أَمْرِ مَرِيحٍ، فَإِنَّ مَنْ يُنْكِرُ الرُّؤْيِيَّةَ، يَزْعُمُ أَنَّ الْعَقْلَ يُحِيلُهَا، وَأَنَّهُ مُضْطَرٌّ فِيهَا إِلَى التَّأْوِيلِ، وَمَنْ يُحِيلُ أَنَّ لِلَّهِ عِلْمًا وَقُدْرَةً، وَأَنْ يَكُونَ كَلَامُهُ غَيْرَ مَخْلُوقٍ وَنَحْوَ ذَلِكَ يَقُولُ: إِنَّ الْعَقْلَ أَحَالَ ذَلِكَ فَاضْطَرَّ إِلَى التَّأْوِيلِ، بَلْ مَنْ يُنْكِرُ حَقِيقَةَ حَشْرِ الْأَجْسَادِ، وَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ الْحَقِيقِيِّ فِي الْجَنَّةِ يَزْعُمُ أَنَّ الْعَقْلَ أَحَالَ ذَلِكَ وَأَنَّهُ مُضْطَرٌّ إِلَى التَّأْوِيلِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ: يَزْعُمُ أَنَّ الْعَقْلَ أَحَالَ ذَلِكَ وَأَنَّهُ مُضْطَرٌّ إِلَى التَّأْوِيلِ.

وَيَكْفِيكَ دَلِيلٌ عَلَى فِسَادِ قَوْلِ هَؤُلَاءِ أَنْ لَيْسَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ قَاعِدَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ فِيمَا يُحِيلُهُ الْعَقْلُ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ الْعَقْلَ جَوْرٌ أَوْ أُوجِبَ مَا يَدْعِي الْآخَرَ أَنَّ الْعَقْلَ أَحَالَهُ.

فِيَا لَيْتَ شِعْرِي بِأَيِّ عَقْلٍ يُورِثُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ حَيْثُ قَالَ: "أَوْكَلْنَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ تَرَكْنَا مَا جَاءَ بِهِ جَبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لِيَجْدَلَ هَؤُلَاءِ".

ما شاء الله هذا كلام رصين بين الشيخ فيه أن هؤلاء النافين لما أثبت الله لنفسه في أمر مريح، والأمر المريح هو الأمر المضطرب، وهذه يردكم الله سمة من سمات المخالفين للطريقة السلفية أنهم لا تنضبط لهم قاعدة ولا يستوي لهم كلام ولا يقر لهم قرار في آحادهم ومجموعهم، والسائرون على الطريقة السلفية في هذا الباب وغيره قولهم مضطرب يصدق بعضهم بعضاً لأنهم متبعون للكتاب الذي وصف الله تعالى أنه متشابه {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا} (الزمر ٢٣) ما معنى متشابه؟ يعني يشبه بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}؟ (الملك ٣) لا والله لا يمكن أن تجد في كلام الله تعالى وفي كلام نبيه ﷺ معاني متناقضة متعارضة، وناتج ذلك أن الذين ساروا واعتصموا بالكتاب والسنة جاء كلامهم مطرداً وقاعدتهم لا تنخرم بخلاف هؤلاء. وصدق رحمه الله - وهو من أبصر الناس بمقالات الناس - فإن هؤلاء المتكلمين مضطربون في عقائدهم تجد الواحد منهم يقول قولاً ثم يأتي بنقيضه، يمر بمراحل من الاضطراب وتقدم معنا ذكر أمثلة من اضطرابهم، الجويني غفر الله له وعفا عنه قال في الإرشاد ما لم يقله في الشامل وقال في الشامل ما لم يقله في النظامية، ثلاثة كتب له واحد في أول حياته وواحد في أوسطها وثالث في آخر حياته يختلفون، ناهيك عما يختلفون بمجموعهم فيه فليسوا على قاعدة واحدة، حينما تقرأ مثلاً في مقالات الإسلاميين للأشعري تقرأ لمقالات المعتزلة العلاف والنظام وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء تجد كل منهم يشطح بكلام لا يقوله الآخر، فإذا دعي العقل فأبي عقل نزن به؟ العقول متفاوتة، العقول ليست منضبطة حتى يحال إلى العقل، فكل يدعي بأن العقل أملى عليه التأويل، فمنهم مثلاً من زعم أن الرؤية يمنعها العقل ومنهم من زعم أن الكلام يمنع العقل ومنهم من زعم أن حشر الأجساد حشراً جثمانياً يمنع العقل، وكلهم قد ادعى هذه الدعوى، فهؤلاء الذين يدعون أن العقل ملزم بتأويل الرؤية وتأويل الكلام والاستواء والنزول وغير ذلك لو قال لهم الزنادقة "أن العقل يلزم بتأويل الحشر والمعاد لأنه حشر روحاني لا جثماني"

لقالوا لهم "هذا كفر وزندقة" فيقال لهم "لم؟ هم استخدموا نفس الأداة التي استخدمتموها هم ادعوا بالعقل وأنتم ادعيتهم بالعقل سواء بسواء، هم زعموا أن العقل كذلك" فالعقل أداة لا يمكن أن تستقل بإثبات الحقائق ولا بد أن تستنير بنور الكتاب والسنة، كما مثل لكم دوماً لو أن أحداً دخل هذا المسجد الفسيح في الليل والأضواء مغلقة ظلمة فهو يمشي فرما عشر بحامل المصاحف أو عشر بأي شيء من الأدوات التي في طريقه مع أنه يملك عينين لكن العينين لا تنفعان لماذا؟ لعدم وجود إضاءة فإذا وقعت يده على مفاتيح الإضاءة وصار يضيء انكشف له الحال وكذلك العقل أداة فإذا استنار بنور الوحي أبصر الأشياء صحيحة، أما بدون الوحي يتخبط ولذلك لم يُحَلِّ اللهُ ﷻ في هذه الأمور العظيمة والخطيرة على مجرد العقول، وفي نفس الوقت لم يهمل الله تعالى العقل لكنه أمر بالانتفاع بالعقل في ما كشفه النقل، فأمرنا أن نتدبر {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} (ص ٢٩) ما هي أداة التدبر؟ العقل، {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} عربية القرآن لكي يعين على التعقل، كذلك {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (يوسف ٢)، فالشرع لم يُلْغِ العقل وإنما وظفه توظيفاً صحيحاً بحيث ينتفع الإنسان من عقله وعينيه ولسانه وأذنيه، أما هؤلاء القوم فإنهم كما قال الشيخ (وَيَكْفِيكَ دَلِيلٌ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ هَؤُلَاءِ أَنْ لَيْسَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ قَاعِدَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ فِيمَا يُحِيلُهُ الْعَقْلُ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ الْعَقْلَ جَوَزٌ أَوْ أَوْجَبٌ مَا يَدَّعِي الْآخِرُ أَنَّ الْعَقْلَ أَحَالُهُ. فَيَا لَيْتَ شِعْرِي) وهذا عبارة تعجب وتعجيب (بأي عقل يُوزَنُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ) واستشهد بقول مالك رحمه الله، لمالك رحمه الله كلمات نيرات ناتجة عن خبرة، خلاف ما يدعي هؤلاء أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، هم يظنون السلف دراويش لا يفهمون، لا والله هم أدق الناس فهماً وأعمقهم علوماً، ولذلك تخرج الكلمات منهم ثقيلة ذات وزن ومعنى، يقول مالك رحمه الله ("أَوَكُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ تَرَكْنَا مَا جَاءَ بِهِ جَبْرِيلاً إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لِيَجْدَلَ هَؤُلَاءِ) يشير إلى أن أصحاب الجدل كثر ومتعددون والواحد أجدل من الآخر، ومعنى أجدل يعني يزخرف الكلام ويتدشق به ويورده من موارد شتى، فيقول: هل نكون في مهب الريح لهؤلاء كلما جاء أحدهم جذبنا من جانب فيأتي يجذبنا الآخر من الأمام أو الخلف فنضيع وندع ما جاءنا به محمد ﷺ الذي {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ} (الشعراء ١٩٥: ١٩٣) فتشبهت به واعتصم ولا يغرنك هؤلاء، فعصمهم الله بهذا ونفعهم ببركة الاعتصام بدلالة النصوص واحترامها.

((وَكُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَخْصُومٌ بِمَا خُصِمَ بِهِ الْآخِرُ، وَهُوَ مِنْ وُجُوهِ:

أَحَدُهَا: بَيَانُ أَنَّ الْعَقْلَ لَا يُحِيلُ ذَلِكَ.

الثاني: أَنَّ النَّصُوصَ الْوَارِدَةَ لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ.

الثالث: أَنَّ عَامَّةَ هَذِهِ الْأُمُورِ قَدْ عَلِمَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ جَاءَ بِهَا بِالْإِضْطِرَارِ، كَمَا عَلِمَ أَنَّهُ جَاءَ بِالصَّلَاةِ الْخَمْسِ، وَصَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَالتَّأْوِيلُ الَّذِي يُحِيلُهَا عَنْ هَذَا بِمَنْزِلَةِ تَأْوِيلَاتِ الْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ فِي الْحَجِّ وَالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَسَائِرِ مَا جَاءَتْ بِهِ التَّبَوُّاتُ.

الرابع: أَنَّ يُبَيِّنُ أَنَّ الْعَقْلَ الصَّرِيحَ يُوَافِقُ مَا جَاءَتْ بِهِ النَّصُوصُ، وَإِنْ كَانَ فِي النَّصُوصِ مِنَ التَّفْصِيلِ مَا يَعْجِزُ الْعَقْلُ عَنْ دَرَكِ تَفْصِيلِهِ، وَإِنَّمَا عَقْلُهُ مُجْمَلاً إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوُجُوهِ، عَلَى أَنَّ الْأَسَاطِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَالْفُحُولَ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّ الْعَقْلَ لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى الْيَقِينِ فِي عَامَّةِ الْمَطَالِبِ الْإِلَهِيَّةِ))

هذه قطعة ثمينة من الكتاب بين فيها الشيخ رحمه الله إبطال طريق المتكلمين من أربعة وجوه:

الوجه الأول وهو في الواقع مشابه للوجه الرابع وهو أن العقل لا يحيل ذلك: فإذا قال المتكلمون أن العقل يمنع أن يكون الله تعالى استوى على العرش، وقالوا أن العقل يمنع أن الله يكون له وجه وعينان وغير ذلك وأنكروا ما جاءت به النصوص الصريحة الصحيحة، قلنا لهم: أولاً من قال أن العقل يحيل ذلك؟ فالعقل لا يحيل ذلك، دعوى تقابل دعوى وسيأتي مزيد لهذا في الوجه الرابع، فنحن ابتداءً لا نوافق على دعواكم وليس كل دعوى تطلق فهي صحيحة، وما أكثر الدعاوى الباطلة، فدعواكم أن العقل يحيل ذلك مجرد دعوى ادعيتوها ولا نسلم لكم ذلك

كل يدعي وصلاً بليلى
وليلي لا تقر لهم بذلك.

الوجه الثاني أن النصوص الواردة لا تحتمل التأويل: قلنا: لم يا جماعة هذه النصوص التي قلتم أنها العقل يحيلها؟ نصوص واضحة صريحة بيّنة ليست غامضة مشتبهة فكيف تقولون العقل يحيل ذلك؟ ما تحتمل التأويل، مثلاً قال رسول الله ﷺ (ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفري فأغفر له) القوم لا يثبتون النزول فماذا يقولون؟ يقول العقل يحيل النزول لا يمكن ويلزم منه النقلة والحركة ويلزم كذا وكذا والحدوث ويذكرون مسرداً من اللوازم فنقول دعونا جانباً من اللوازم فنقول دعونا نناقش في النص الذي أمرتم بالإيمان به هل يحتمل التأويل أم لا؟ النبي ﷺ أسند النزول لمن؟ (ينزل ربنا) فأسند النزول لله، فلو كان الأمر كما زعمتم أن المراد نزول أمره أو نزول ملك من ملائكته لما كان يعجز النبي ﷺ أن يقول ينزل أمر ربنا أو ينزل ملك أو تنزل رحمة ربنا، ما الذي يمنعه من أن يقول ذلك؟ لماذا يلبس على الناس ويدخلهم في الاشتباه؟ لماذا تدعون هذا والنص لا يحتمل التأويل؟ ثم ماذا تأمل يقول الذي ينزل (من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفري فأغفر له؟) هل يمكن أن يقول ملك من يدعوني ومن يستغفري؟؟ عجباً لكم! ثم هذا الذي ينزل لو كان كما زعمتم أنه أمره فقد جعلتم وقت نزوله ثلث الليل الأخير مع أن أمر الله ينزل ليل نهار صباح مساء وكل يوم هو في شأن سبحانه ومحمد يرفع القسط ويخفضه، زعمتم في بعض مزاعمكم أن الذي ينزل هو رحمة ربنا، يا سبحان الله! ما منتهى لزوم هذا اللازم؟ السماء الدنيا، أي نفع للعبادة أن يكون منتهى نزول الرحمة هو السماء الدنيا؟ وهي لم تبلغهم في الأصل، فكل هذا يدلنا على ما قال الشيخ في الوجه الثاني أن النصوص الواردة لا تحتمل التأويل، ولذلك هم يشقون بالنصوص في تأويلها والجواب عنها وقلت لكم هذا يناقض قوله تعالى { مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } (طه ٢) وهم قد شقوا بالقرآن لأن طريقتهم باطلة.

الوجه الثالث: أن عامة هذه الأمور قد علم أن الرسول ﷺ جاء بها بالاضطرار كما أنه جاء بالصلوات الخمس وصيام شهر رمضان، فالتأويل الذي يحيلها عن هذا بمنزلة تأويلات القرامطة والباطنية في الحج والصلوة والصوم وسائر ما جاءت به النبوات، كيف ذلك؟ الشيخ رحمه الله يقول أن هذا الذي تؤولونه معلوم من الدين بالضرورة، ولم يختلف عليه الصحابة ولا التابعون ولا تابعوهم، وكلهم أثبت لله ما أثبت لنفسه من صفات معنوية وخبرية وفعلية ولم يختلفوا على ذلك، وأنه من الشهرة بمكان ولم ينقل عن واحد منهم من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم أنه حرّف أو أوّل شيئاً من هذه الأشياء فهي معلومة عندهم علماً أشد من علمهم بفرضية الصلاة والصوم والحج والزكاة، وأنتم تنكرون على القرامطة الباطنيين الذين يقولون "المراد بالصوم كتم الأسرار والمراد بالصلاة الاتصال بشيوخنا والمراد بالحج السفر إلى عتباتنا ومشاهدنا والمراد بالزكاة دفع الخمس إلى ساداتنا" إلى آخره.. وتقولون:

هذا تأويل كفري باطل، فما الفرق بينكم وبينهم؟ هم حزفوا وأولوا ما هو معلوم من الدين بالضرورة باعترافكم وإنكاركم عليهم وأنتم فعلتم ذلك فيما يتعلق بصفات رب العالمين، فما الفرق؟ يلزمكم ما يلزمهم وسوف يستطيعون عليكم ويقولون: كما أنكم أنتم سوؤغتم لأنفسكم تأويل صفات رب العالمين، فما الذي يجرم علينا أن نأول الأحكام والشرائع ونأتي لها بمعاني مجازية؟ هذا معنى الوجه الثالث وهو وجه قوي في رد باطلهم.

الوجه الرابع (أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ الْعَقْلَ الصَّرِيحَ يُوَافِقُ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ، وَإِنْ كَانَ فِي النُّصُوصِ مِنَ التَّفْصِيلِ مَا يَعْجزُ الْعَقْلُ عَنْ دَرَكِ تَفْصِيلِهِ، وَإِنَّمَا عَقْلُهُ مُجْمَلًا إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوُجُوهِ) إي والله هذه كلمات مهمات في باب معرفة دور العقل، فالعقل يا أخوة لا يحيل ما جاءت به النصوص، صحيح أنه قد لا يستقل في إثباتها ومعرفة وإدراك تفاصيلها لكن لا يحيلها، ولذلك قال الشيخ رحمه الله في بعض كتبه "النصوص محارات العقول لا محالات العقول"، يعني العقول تتحير في إثباتها يعني في أصل إثباتها، لا محالات العقول، يعني لا يقول العقل بعد ذكرها ومجيء العقل بها "يستحيل" يمتنع، العقل لا يستطيع من تلقاء نفسه أن يثبت أن الله استوى على العرش أو أن الله ينزل للسماء الدنيا، ولو فكرت من يوم مولدك ليوم وفاتك وحاولت أن تثبت بمحض العقل أن الله استوى أو أنه ينزل أو يجيء أو يضحك أو غير ذلك لم تستطع، لكن لو جاءك الخبر الصادق أن الله يستوي أو ينزل أو يعتب أو يضحك أو غير ذلك مما أثبتته الله لنفسه أو أثبتته رسوله ﷺ فإن عقلك لا يقول هذا ممتنع أو هذا مستحيل، هذا معنى قول الشيخ أن (العقل الصريح يوافق ما جاءت به النصوص وإن كان في النصوص من التفصيل ما يعجز العقل عن درك تفصيله وإنما عقله مجملًا) ولهذا فكانت القاعدة المشهورة موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، وأن صحيح المنقول لا يمكن أن يخالف صريح المعقول، كلها من عند الله، الخبر من عند الله، والعقل من خلق الله ﷻ وله الخلق والأمر سبحانه وبحمده.

(عَلَى أَنْ الْأَسَاطِينَ مِنْ هَوْلَاءِ وَالْفُحُولَ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّ الْعَقْلَ لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى الْيَقِينِ فِي عَامَّةِ الْمَطَالِبِ الْإِلَهِيَّةِ) نعم يعني كبار الأساطين المقصود بهم العمدة والكبار والمقدمون منهم مقرون ومعترفون بأن العقل محدود وأن العقل ليس مطلقًا ولا يتمكن من استكناه واستشراق كل شيء، له حد، وأنه لا سبيل له إلى تحصيل اليقين في عامة المطالب الإلهية. يقول الشهرستاني

وسيرت طرقي بين تلك المعاهد

لعمرك لقد طفت المعاهد كلها

على ذقن أو قارعا سن نادم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر

هكذا تحيروا ولم يستطيعوا أن يصلوا إلى عامة المقاصد والمطالب الإلهية، فلا سبيل لهم في ذلك إلا الاعتصام بالنص.

((وَإِذَا كَانَ هَكَذَا فَالْوَجِبُ تَلَقِّي عِلْمٍ ذَلِكَ مِنَ النَّبَوَاتِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، وَأَنَّهُ بَيِّنٌ لِلنَّاسِ مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مِنْ أُمُورِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ: يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِالْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِالْخَلْقِ وَالْبَعْثِ كَمَا جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} وَقَالَ تَعَالَى: {مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفْسٍ وَاحِدَةً} وَقَالَ تَعَالَى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَمْرِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا هَدَى اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ وَكَشَفَ بِهِ مُرَادَهُ.

وَمَعْلُومٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ، وَأَنْصَحَ لِلأُمَّةِ مِنْ غَيْرِهِ، وَأَفْصَحَ مِنْ غَيْرِهِ عِبَارَةً وَبَيَانًا، بَلْ هُوَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِذَلِكَ وَأَنْصَحَ الْخَلْقَ لِلأُمَّةِ وَأَفْصَحَهُمْ، وَقَدْ اجْتَمَعَ فِي حَقِّهِ ﷺ كَمَالُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ. كَمُلَ كَلَامُهُ وَفَعَلُهُ وَإِنَّمَا يَدْخُلُ النَّقْصُ إِذَا مِنْ نَقْصِ عِلْمِهِ وَإِنَّمَا مِنْ عَجْزِهِ عَنْ بَيَانِ عِلْمِهِ وَإِنَّمَا لِعَدَمِ إِرَادَتِهِ الْبَيَانَ. وَالرَّسُولُ هُوَ الْغَايَةُ فِي كَمَالِ الْعِلْمِ وَالْغَايَةُ فِي كَمَالِ إِرَادَةِ الْبَلَاغِ الْمُبِينِ وَالْغَايَةُ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى الْبَلَاغِ الْمُبِينِ - وَمَعَ وُجُودِ الْقُدْرَةِ التَّامَّةِ وَالْإِرَادَةِ الْجَازِمَةِ: يَجِبُ وُجُودُ الْمُرَادِ؛ فَعَلِمَ قَطْعًا أَنَّ مَا بَيَّنَّهُ مِنْ أَمْرِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ: حَصَلَ بِهِ مُرَادُهُ مِنْ الْبَيَانِ وَمَا أَرَادَهُ مِنَ الْبَيَانِ فَهُوَ مُطَابِقٌ لِعِلْمِهِ وَعِلْمُهُ بِذَلِكَ أَكْمَلُ الْعُلُومِ. فَكُلُّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ غَيْرَ الرَّسُولِ أَعْلَمُ بِهِذَا مِنْهُ أَوْ أَكْمَلُ بَيَانًا مِنْهُ أَوْ أَحْرَصُ عَلَى هَدْيِ الْخَلْقِ مِنْهُ: فَهُوَ مِنَ الْمُلْحِدِينَ لَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَالصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِقَامَةِ.))

ما شاء الله سبحانه من ألان له الكلام وهداه إلى هذا البيان، يعني الحقيقة إن شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله علم بارز في تقرير العقيدة الإيمانية السلفية على أحسن الوجوه وكشف زيف هؤلاء المتكلمين الذين استدرجتهم المناهج الدخيلة، هذا الكلام الذي ساقه كلام بديع بين فيه أن الله سبحانه وتعالى قد بعث محمدًا بالهدى ودين الحق وأن أعظم باين بينهما النبي ﷺ هما باي الإيمان بالله وأمر المعاد ولهذا يقرن الله تعالى بينهما كثيرًا ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر، انظر كيف قرن الله بينهما {مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} (لقمان ٢٨) فأثبت الخلق والبعث وأثبت الصفات السمع والبصر، {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (الروم ٢٧) انظر كيف يجمع بينهما، {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} (البقرة ١٧٧) فهذان البابان الغيبان باب الإيمان بالله وباب الإيمان باليوم الآخر لا يمكن الوصول إليهما إلا عن طريق النبوات.

ونبينا ﷺ قد اجتمعت فيه جميع مسوغات ومتطلبات قبول الخبر:

- العلم المنافي للجهل .

- الصدق المنافي للكذب.

- البيان المنافي للعي والفهاهة.

- النصح المنافي للغش.

فاكتملت في حقه ﷺ جميع شرائط قبول الخبر فهو أعلم الناس بربه وهو ﷺ أصدق الناس لا ينطق عن الهوى وهو . بأبي هو وأمي . أفصحهم بيانًا وأحسنهم عبارة وشهد له بذلك الناس أجمعون، وهو ﷺ أنصح الأمة للأمة بشهادة المؤمنين: قالوا نشهد أنك بلغت رسالة ربك وبلغت الذي عليك قال "اللهم فاشهد" رفع إصبعه إلى السماء وينكتها إلى الناس، إذن اجتمع في حقه كمال العلم والقدرة والإرادة، كمال العلم بالله تعالى، كمال القدرة وذلك بالبيان المطابق للواقع الخبر الصادق، كمال الإرادة بالنصح وعدم الغش، إذا كان ذلك كذلك كمال كلامه وفعله، إذا كان كل هذه الأوصاف مجتمعة في شخص نبينا ﷺ فكيف يتطرق شك لمؤمن يدعي الإيمان أن يقول النبي ﷺ أحلّ في هذا الباب أو قصر فيه، هذا في الواقع أحلّ المحال وأبعد البعيد، ولا

يتطرق هذا إلا لمن في قلبه مرض أو لوثة من نفاق أو زندقة أو غير ذلك؛ فلهذا إذا كان الأمر كذلك كان لزاماً أن نقبل خبر النبي ﷺ المبني على كمال علمه بالله وكمال صدقه وبيانه وكمال نصحه للأمة وألا نوجد مخارج واحتمالات وغير ذلك نصرف فيها الخلق عن مراد نبيهم ﷺ بهذه الدواعي المتهاففة: العقل يحيل ذلك، المنطق إلى غير ذلك من الدواعي. ثم الصحابة الكرام رضوان الله عليه ساروا على طرق الاستقامة ولم يحدوا عما كان عليه النبي ﷺ فكان لزاماً أن نتبع الطريقة السلفية وألا نلتفت لهذه الطرائق المحدثثة البدعية.

هذا وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.